نهاية تجوال

فيصل عبد الحسن

لم يكن أمامه غيرُ المباشرة بعمله الجديد، فقد نُقل إلى أكثر من مكان دون أن يُظهر جدارةً في الأعمال السابقة التي عُهدتْ إليه، وهو يعزو ذلك إلى نوعية تلك الأعمال التي نيطتْ به وإلى الناس الذين يعملون معه على تنفيذها. هرش بيده الطليقة شعرَ رأسه الذي بدا كحزمة أسلاك دقيقة متشابكة، وأشعّةُ الشمس تغور بين التلافيف فتظهرها جذاذاتٍ سوداءَ مشوبةً بحمرة داكنة، وأنفُهُ الدقيق كأصبع عازف ينحني قليلاً إلى الأسفل ليؤشّر بشكل دائم إلى فم صغير مزموم، بشفتين غليظتين ورديّتيْن تنبئ هيأتُهما عن رجل كسول لا يطيق الحرّ، حالم، نصفِ أبله، يحاول طيلة الوقت أن يسحب الأشياء بقوةِ نظراتِ عينيه الخرزيّتين دون أن يبذل جهداً في الحصول على ما يريد، ويخترع طوال الوقت حكاياتٍ غريبةً يوشك الآخرون ان يصدقوها لولا أنهم يكتشفون غرابتها في اللحظة الأخيرة.

مرةً يُلْقون به إلى بئر عميقة، ساخنة، تبعث البخارَ والغازات بشكل دائم ليملأ وعاءً من «البلاستيك» بالنفط الخام، ليخرجه بعد ذلك ويدلقه في خزّان كبير يترجرج السائلُ فيه، فتحمله شاحنةٌ ضخمةٌ على ظهرها، ثم يُنقَل بعد ذلك إلى الميناء البعيد، والسائقُ بثوبه الواسع المتّسخ يهيب بهم للاستعجال، لأنه لم يتناول فطوره بعد، والرجال مثل أسراب النمل يتناوبون النزول إلى البئر والخروج منها وهم ينوؤون بالأوعية المملوءة بالسائل الأسود الثقيل، بعيون لا ترى طريقها. كان من المفروض أن تعمل المضخّاتُ الضخمة، الموجودة لرفع النفط الخام، لكنْ لسبب لا يعرفه تتعطّل تلك المضخّاتُ بين فترة وأخرى، فيتمّ الاستعانةُ بجيشٍ من الرجال أمثاله لهذه المهمّة العسيرة.

في عمل آخر، فُصّلتْ له سترةٌ مضيئةٌ تشعّ في الظلام، وطُلب منه أن يقطع عدةَ كيلومتراتٍ ذهاباً وإياباً على خطٍ أبيضَ مرسومٍ على الأرض بنثار الجبس طيلة ساعات العمل، وهو لا يعرف طبيعةَ العمل الذي يقوم به، ويحاول أن يقدح زناد فكره ليفكّ طلاسمَ عمله الجديد. وحين يفكّر بجدّية عمله وثمراتِ هذا التجوال الأخرق ينتابه الصداعُ، فيسأل النجوم التي يراها وامضةً في الظلام مثل سترته عن أسرار هذا العمل، فتسخر منه النجومُ، متثائبةً، ويتخيلها تتهامس بينها وتضحك من بلادتهم مقهقهةً وتُخرج له بين الفينة والفينة السنَتها الفضيّةَ، المتشظّيةَ في بقعة السماء الواسعة. ثم يسأل كلاب الصحراء العاوية، فلا تجيبه بغير عواء ذئبيّ متّصل يستمر فترةً طويلة. وحين يحاول الغشّ في العمل ويجلس دون شعور بالمسؤوليّة ليدخّن سيجارة، بالرغم من اللوائح الكثيرة التي تشير إلى منع التدخين أثناء العمل، يصيح به جهازٌ مربوط تحت أبطه: «لا تتوقّفْ، الجهازُ يسجل توقّفك، لا تنسَ أنك تقترف خيانةً عظمى! أطفئْ شعلّة النار التي صنعتها!». لم يفهم أولَ الأمر ما يعنيه الجهازُ «بشعلة النار» لكنه عرف بعد ذلك أنه عود الثقاب، فابتكر طريقة لتغطية عود الثقاب بكفّيْه أثناء تأريث سيجارته، وبذلك خدع العينَ السحرية المنصوبةَ في أعلى الجهاز، ومارس عادةَ التدخين بشكل مفرط وبمحبةٍ لم يعهدها في نفسه من قبل. وحاول أن يكتشف طريقةً جديدة لخداع الجهاز؛ فليس من المعقول أن يسير عدة كيلومترات في طريق مظلم على خط أبيض طيلة الليل دون أن يفعل شيئاً من أجل خلق قناعاته الخاصة بما يفعل طوال عشر ساعات من المشي المتواصل. ويتذكر ما رواه زميل من زملاء العمل: «قبل سنوات كانوا يعطون عند منتصف وقت العمل ليتراً من الحليب مع قطعة كبيرة من السُّومون المستورَد ورأس بصل». لكنهم أبطلوا هذه العادة الحميدة منذ أن بدأتْ قوانينُ التقشّف في البلاد تأخذ وضعاً تنفيذياً في مرافق الدولة كافّةً، فاكتفى الرجالُ لتقوية عضلات سيقانهم بحبات الطماطم ورؤوس البصل وبقايا عشاء الأمس الذي يجلبونه معهم من بيوتهم، ويبدأون قضمه طوال ساعات العمل، وهم في العادة يضعونه في كيس «نايلون» ويشدّون طرفيْه بخيط قطنيّ حول رقابهم، لتسهيل عملية الأكل أثناء العمل دون أن يعطوا فرصةً لسقوط شيء منه على الدرب أو أن يعوقهم أثناء المشي. وحين سأل الرجلُ عاملاً آخر كان يسير على خطّ موازٍ... عن أهمية العمل الذي يؤدّيانه خلال هذا الليل المظلم أجاب الرجل بأُستاذية بغيضة: « يبدو أنك جديد هنا.. أعتقد أنّ من المهم الإيمان بأنّ ما تؤديه من عمل، هو أهمّ الأعمال في الدنيا، إذ لولا عملك لفقد العالم اتّزانه!..» ثم تنهّد وأكمل بحشرجة: «لا أعتقد أنهم يدفعون لنا الرواتب نهاية كل شهر... هكذا دون فائدة يجنونها من وراء تجوالنا الليلي..».

كان يسير وسترته المشعّة تطيّر أطرافَها الريحُ، وخلال الظلام يشعّ منها اللونُ الفسفوريُّ، كألسنة مشرشرة من اللهب والدخان. فعاد يسأله من جديد: «أتعتقد أن المسير طوال الليل، بهذه الستّرات المضيئة، تفيد أحداً من الناس؟» فسمعه يقول بعد أن سعل سعلة جافة قصيرة: «أجل هذا ما ينبغي ان تعتقد!»

فقال الرجل ضاحكاً، محاولاً ان يبدّد جدّية زميله الحديديّة:

ـ انا أدفع راتبي للإيجار.. يجيء صاحب البيت نهاية كل شهر بوجهه العابس، فأدفع له ظرف حسابات الدائرة، المختوم، وأستغرق بعد ذلك في تفكير عميق، في أهمية هذا السير الطويل الذي أقوم به كل ليلة، ما دمتُ نهايةَ كل شهر أدفع نتائجه الماديّة من أجل مبيت زوجتي وأطفالي في «خرابة» مسقفة!

قاطعه زميل العمل:

ـ لا تفكّر هكذا، إنّ ذلك يتعبك فوق الكدّ الذي أنت فيه.

كانت ليلة مقمرة، ساكنة، وحين يكون القمر مكتملاً كهذه الليلة يرى الخطوط الأخرى الموازية لخطّه، والتي يسير عليها رجال آخرون بسحنات ممسوحة وعيون مفقوءة وستّرات مضيئة طوال الليل، فتبدو الفلاة في تلك اللحظة مثل لوحة إعلانات كبيرة تبشّر السائحين بملذّات أسطورية لم يجرّبوها في مدن أخرى. سأله زميله بصوت خفيض:

ـ وكيف تعيشون؟

ضحك الرجل وأجابه:

ـ أننا نعيش هكذا: ـ وحرّك يده الفارغة في الهواء ـ أنا وزوجتي نملك سرباً من الأطفال في مختلف الأعمار تُطْلقهم أمهم في الصباح يبحثون عن وليمةِ فرح أو معزى، ومدينتنا كبيرة، ويمكننا أن نجد في اليوم الواحد أكثرَ من مناسبة. ثم تُطْلق المرأة ذئابها بأوعيتهم المسودّة، فيتقافزون عبر الزقاق الذي نسكنه مثل قردة صغيرة تشترك في مهرجانِ سيركٍ صاخب. ولشدّ ما يضحكني صغيرُهُم الذي تعلّم السير على قدميه منذ مدة قصيرة، لكنه يحاول باستماتة تقليدَ إخوته في ركضهم المجنون باتجاه أماكن الولائم، ومع كل خطوتين يخطوهما يتعثر ويقع، لكنه يتحامل على نفسه ويقف من جديد ويواصل ركضه مترنّحاً، وأمُّه تقف في فرجة باب الدار تنظر ركضه المتعثّر ضاحكة...

اختنق الرجل ضاحكاً، لكنّ زميله في العمل لم يشاركه القهقهة، بل اكتفى بالنظر باتجاهه، ثم نظر من جديد صوب الخطّ المرسوم على الأرض حيث تضيع نهاياته في العتمة، وبصق بصوت مسموع.

بعد أيام تقرّحتْ قدماه من السير وانتشرت الدمامل المائية في أطراف أصابعه وبين ساقيه. واصل وهو يردّد مع كل خطوة أسماءَ الأنبياء والأولياء والصالحين، ويطلب معونة اللّه على تحمّل آلامه وهواجسه. وفي ليلة شتوية، شديدة البرد، كثيرة المطر، توقف الرجل عن المشي وخلع سترته المشعّة. رماها على الخط ورفض مواصلة السير. وفي الصباح وجد اسمه في لائحة المنقولين إلى عمل آخر.

*

في العمل الجديد اقتادوه إلى قاعة كبيرة وجدها تغصّ بمئات الآلاف من الرسائل: أكوام عالية من المغلفات والرزم. وقد بَرَك ثلاثة رجال، وأمامهم تنتشر على مساحة القاعة أوعية كبيرة من «البلاستيك» الملون، المستخدمة في البيوت للغسيل. وجدهم يفرزون الرسائل القادمة عن المغادرة، وطيلة الوقت يحدقون بعيونهم المطفأة بأغلفة الظروف ويجمعونها ويختارون بعد ذلك الأوعية المناسبة لإلقاء كل حزمة منها. وثمة رجل آخر يحمل آلة ثقيلة مسودّة الأطراف بالأحبار تشبه آلةَ حفر الشوارع يدور بها على الأوعية المملوءة بالرسائل ويختم المغلفات بآلته، تاركةً أثراً أسود على شكل دائرة مشوّهة فوق غلاف كل ظرف. وبالرغم من ثقل الآلة التي يحملها، والضجيج الذي يصدر عنها حين تعمل، والمسافة التي يقطعها يومياً، فإنّه لم يقل كلمة واحدة تحمل هجاءً أو قرفاً من العمل الذي يقوم به طيلة النهار. تركوه يجلس بينهم ناظراً إليهم من خلال أكوام المغلّفات مثل قط جائع يرصد وليمة فخمة، دون أن يعطوه مفاتيح اللعبة التي يمارسونها عشرَ ساعاتٍ متقطّعة من يومهم القصير. جعلوه بعد ذلك يحمل أكوام المغلفات الصفراء، البيضاء، الترابية ويضعها داخل أوعية متباعدة هنا وهناك، دون ان يعينوه على معرفة تفاصيل عملهم أو كيف يفرزون هذه الآلاف العديدة من الرسائل بهذه السرعة الخارقة في جو القاعة الخانق وفي درجة حرارة تربو على الخمسين درجة مئوية، مع مروحة سقفية محتضرة تدور ببطء على وتيرة واحدة ليلاً ونهاراً ولا يتوقف احتضارُها المستمرُّ إلا حين ينقطع التيارُ الكهربائي عن البناية بأكملها.

شعر بعد أيام أنه لا يفيد في هذا المكان أيضاً، فقبع في زاوية القاعة صامتاً. وكلما وُضعتْ أمامه حزمةٌ كبيرة من المغلّفات، نظر إليها باشمئزاز ورفضها بحركة من رأسه وهو يتخيّل نفسه حماراً مريضاً يوضع البرسيم أمامه ليقتات

عليه لكنه يرفضه بهزّات غبيّة، متكرّرة من أذنيه ورأسه والدموع تترقرق في عينيه.

*

نقلوه بعد ذلك إلى دائرة جديدة وقد اكتشف بعضَ أسرارها منذ أول لحظة. عرف أنها تحوي عدداً كبيراً من العميان. وخلال أيام عمله هناك لم يصادف مُبْصراً واحداً. كانوا يديرون آلات غريبة الشكل بالضغط على أزرار بارزة حمراء وخضراء، ويضعون الموادّ الأولية وهي عبارة عن مساحيق سوداء ورمادية حريفة الرائحة، والمكائن تدور مؤدّيةً دورَها في التصنيع. وقد ألغتْ إدارةُ الشركة شبكةَ الإضاءة الداخلية، للمحافظة على الطاقة وعدم هدرها في ما لا ينفع، وقد غَرقتْ ردهاتُ الإنتاج وممرّاتها ودهاليزها في ظلام معتمٍ ورطوبةٍ منذ عشرات السنين، كأنما قد أقيمت في سراديب تحت الأرض. وكلّ الذين صادفهم لا يهمّهم أمر الاضاءة؛ فهم يرون طريقهم جيداً وقد حفظوه عن ظهر قلب. والذي أدهشه في عمله الجديد أنّ دورات المياه بلا أبواب، وقد صُمِّمَتْ كجزء من فضاءِ قاعةٍ تنتشر فيها صنابيرُ ماءٍ تقطر بشكل مستمر. ولن يتلصّص أحدٌ على أحد في خلوته، ما دام الجميع بعيون لا ترى شيئاً. وحين يدقّ عاملُ الاستعلامات الأصلعُ جرسَ انتهاء مدة العمل، ليخرج العميان زرافاتٍ زرافاتٍ، يُمسك أحدُهم بكتف الآخر ويقودهم أكبرُهم سناً وبيده عصاه التي يمسح بها الأرضَ أمامهم، كما يفعل الرجلُ الذي يخوض في مياه آسنةٍ وهو يُبْعد عن طريقه الطحالبَ والأشنات والعفنَ.

حين علموا بعد مدة أنّ وسطهم يضمُّ مُبْصراً أخذتْ تجتاحهم الريبةُ والنوباتُ العصبيّة المتكرّرة من كل حركة يسمعونها أثناء العمل، وبدأ الانكماش على وجوههم وتصرفاتهم، وأخذوا يلفّون أكياسهم التي يضعونها تحت آباطهم عند الخروج بأيدٍ مرتجفة؛ فقد كانت تحوي سرقاتهم الصغيرة من المواد الأولية وأجزاء الآلات العتيقة التي يبيعونها في أسواق الحديد المستعمل وبعض المواد نصف المصنّعة. كانت سرقاتُهُم الصغيرة من الشركة توفّر لهم دخلاً ثابتاً نهايةَ كل شهر، أغفلتْه قوائمُ الحسابات التي تُعَدّ نهايةَ كل شهر من قِبل موظفةٍ ضعيفة البصر تضع على عينيها نظاراتٍ طبّيةً ذاتَ زجاج سميك وتحاول قدر إمكانها، بمناسبة وبغيرها، رفعَ النظّارة الطبّية عن عينيها والنظرَ إلى مرآة صغيرة تخفيها بشكل دائم في حقيبتها، لترى مدى جمال عينيها وسط هذا الحشد من العيون غير المبصرة.

أحسّ الرجل بعد مدة أنّ زملاء العمل يحيكون الدسائس حوله للإيقاع به، وقبل أن ينجحوا في مساعيهم عَرفَ حقيقة مدهشةً عنهم ووظّفها بشكل مستعجل... فقد استطاع ان يكتشف، عن طريق المصادفة وحدها، أنهم يتظاهرون بالعمى.. وتدرّب في البيت على طرائق العميان في السير والأكل والتحسّس في الظلام، ووضع على عينيه نظارةً سوداء، وحمل كيساً تحت أبطه كالذي يحملون، وتوقّف عن طرح الأسئلة، وأخذ يضع يده على كتفِ آخرٍ واحدٍ من الرهط الخارج كل يومٍ من بناية الدائرة في سلسلة بشرية طويلة.

ولأول مرة في حياته الوظيفية عند الدولة شعر بسعادة الاطمئنان والأمن من النقل إلى مكان آخر، وفكر أنها قد تكون نهاية تجواله..

سبها (ليبيا)

(الكاتب عراقي)

ما الذي جرى على محور اللقيس اليوم، الاثنين، ١٥/آذار/١٩٨٢؟

فجأة تمزق الهدوءُ بدويّ انفجارٍ هزَّ البيت، تبعه رشقُ الرصاص من كل الجهات. وقفز الجميع نحو غرفة السفرة، بينما اندفع «رامي» نحو المطبخ ليستطلع الوضع من نافذته.. وصرختْ محذّرا:

ـ الزموا أماكنكم. رامي! لا يغادرنَّ أحدٌ غرفةَ السفرة. (وتسمروا واقفين مرتعبين. كنت لا أزال في مقعدي والصحيفةُ بين يديّ. طويتها ووضعتها جانباً.) تعالوا، اقعدوا ولا تتحركوا.

وصرختْ أمُّهم:

ـ كيف؟ تعال أنتَ إلى هنا. قُمْ من تحت النافذة، الزجاج.

ـ لا تخافوا. المعركة على محور الشارع الرئيسي، من متراس إلى متراس، ونحن هنا على الزقاق العمودي على الشارع، وإلى الداخل، خلفَ بناءٍ إلى المفرق.

ـ والرصاص الطائش؟ والقذائف؟ وحطام الزجاج؟ قُمْ من عندك.

ـ الرصاص الطائش نتفاداه ببقائنا ضمن هذه الجدران. والقذائف، اذا ما صدف وأصابت البيت، لا تصل إلى حيث